الفصل الثاني:

الإصلاح السياسي عند الشيخ رشيد رضا
بين بناء دولة إسلامية نموذجية وإقامة جامعة إسلامية

أ. أحمد على سالم(*)

مقدمة:

ثلاث شخصيات مسلمة كبرى كان لها أكبر الأثر في حركة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا. فقد مثلت حركتهم رد فعل متوازن للتحدي المزدوج الذي كان على العالم الإسلامي أن يواجهه منذ القرن التاسع عشر، ألا وهو تدهور المجتمعات والدول الإسلامية -بل والحضارة الإسلامية ككل- من جانب، والهيمنة المتزايدة للغرب على العالم الإسلامي عسكرياً وتكنولوجياً من جانب آخر. فبينما دعا بعض المصلحين المسلمين -مثل دعاة الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ودعاة الحركة المهدية في السودان- إلى إصلاح يقوم فقط على القرآن والسنة وبعض التقاليد الإسلامية، نادى آخرون من دعاة الإصلاح -مثل زعماء حركة التنظيمات في الدولة العثمانية- إلى إصلاح يستند فقط على القيم الغربية. أما الجماعة الوسط من دعاة الإصلاح المسلمين -و التي تزعمها الأفغاني وعبده ورضا- فقد نادت بإصلاح يقوم على كل من الوحي الإسلامي وبعض ما أنتجته الحضارة الغربية(١).

ويُعرف الشيخ محمد رشيد رضا عادة بأنه تلميذ مخلص لمحمد عبده، وقد كان كذلك بالفعل. إلا أن ذلك ليس كل الحقيقة، فقد كان لرضا رؤيته و إسهاماته الإصلاحية الخاصة. كما كان أيضاً مجاهداً لتحقيق المشروع السياسي الإصلاحي الذي

(*) ماجستير في العلوم السياسية والدراسات الإسلامية من جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في فرجينيا، طالب دكتوراه في العلوم السياسية في جامعة نينوى.

(١) لمزيد من التفاصيل عن الحركتين الوهابية والمهدية وحركة التنظيمات العثمانية انظر: John L. Esposito (ed.), *The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World* (New York and Oxford: Oxford University Press, 1995) vol. 3, pp. 20-22; vol. 4, pp. 183-186, 307-308.

وضعه الأفغاني من قبل، رغم أنه لم يفعل ذلك عن قصد في بعض الأحيان. وبينما يُنظر إلى رضا بعين الإجلال و الإكبار للدور الذي قام به في نشر و إثراء تعاليم عبـــده في الإصلاح الديني والتعليمي، فإنه نادراً ما يُحمَد على مشروعه السياسي الذي استوحاه من الأفغاني ثم طوّره وجاهد في سبيل تحقيقه. وبناء عليه، فإن هذه الورقة تهدف أولاً إلى بيان الأثر الكبير لمشروع الأفغاني للإصلاح السياسي على الفكر والحركة السياسية الإصلاحية للشيخ رشيد رضا. كما تهدف الورقة ثانياً إلى إبـــراز معـــالم المـــشروع السياسي الإصلاحي الذي وضعه الشيخ رشيد رضا وجاهد في سبيل تحقيقه.

وتأتي أهمية هذا الموضوع في ضوء عدم اهتمام كثير ممن كتب عن الشيخ رشـــيد رضا وجهوده الإصلاحية بمشروعه السياسي الإصلاحي، وخاصة تأثره بالسيد جمـــال الدين الأفغاني في هذا الصدد. فرغم أهمية الدور الذي لعبه الشيخ رشـــيد رضـــا في حركة الإصلاح السياسي على أساس إسلامي في العصر الحديث، فإن المكتبة العربية لم تحتف به قدر احتفائها بأستاذيه السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده. فـــلا يقع الباحث إلا على بضعة عشر كتاباً هي كل الأدبيات العربية عن الـــشيخ رشـــيد رضا. أما ما كتب عنه باللغة الإنجليزية فلا يتجاوز عدده أصابع اليد الواحدة.

ولا تتناول جميع هذه الكتب المشروع السياسي الإصلاحي للشيخ رشيد رضا، كما أن بعضاً ممن تناول هذا الموضوع لم يلتزم الشمول أو الموضوعية أو التحليـــل العلمـــي. فترى على سبيل المثال من يهتم بالجانب الفكري للمشروع دون جانبـــه الحركـــي أو العكس. بل إن بعض أولئك الذين ركزوا على الجانب الفكري اهتموا بأحد أبعاده فقط كموقف الشيخ رشيد رضا من الغرب أو رؤيته للحداثة. أما موضوع تتلمـــذ الـــشيخ رشيد رضا على السيد جمال الدين الأفغاني وما يتعلق بقضايا الإصلاح الـــسياسي فـــلا تجده في معظم الدراسات عن المشروع الإصلاحي للشيخ رشيد رضا. كما تجـــد مـــن يحاول ربط المشروع الإصلاحي السياسي للشيخ رشيد رضا طوعاً أو كرهاً بأيديولوجية معينة كالقومية العربية أو الدعوة السلفية الوهابية، أو بحاكم بعينه كالشريف حسين بـــن

علي أو الملك عبد العزيز آل سعود. وقد غلب على بعض هـذه الكتابـات الطـابع القصصي من العرض والسرد دون البعد التحليلي من حيث المناقشة والنقد.

المبحث الأول: تأثر رشيد رضا بمواقف أستاذيه من الإصلاح السياسي:

رغم أنه عادة ما يُنظَر إلى رشيد رضا على أنه داعية للإصلاح الديني والتربوي على نحو ما كان عليه الإمام محمد عبده، وليس داعية للإصلاح السياسي على نحو ما كان عليه السيد جمال الدين الأفغاني، فإن رضا كان مفكراً سياسياً مـن الدرجـة الأولى ومحترفاً للعمل السياسي من أجل الإصلاح تماماً كما كان مصلحاً دينياً وتربوياً. فقد وضع رضا رسالة في إحياء الخلافة على أساس إسلامي أصيل يتناسب مع حالة العـالم الإسلامي في العصر الحديث[١]. وقد تناولت الرسالة موضوعين أحدهما نظري والآخر عملي. فأما شقها النظري فقد عُدّ أفضل ما كتب في النظرية الإسلامية للحكم مـن حيث التأصيل والتنظيم منذ الكتاب الذي وضعه الماوردي في "الأحكام السلطانية" في القرن الرابع الهجري[٢]. وأما الشق العملي فقد تناول المشاكل التي ظهـرت أعقـاب الحرب العالمية الأولى والتي أثرت في مصير الخلافة. وكسياسي محنّك ساهم رضـا في إنشاء وقيادة عدة تنظيمات سياسية، كما دعا إلى إصلاح سياسي على أساس إسلامي في الدولة العثمانية والجزيرة العربية وسوريا وجاهد من أجل تحقيق ذلك الإصـلاح، وذلك على نحو ما ستفصله هذه الورقة لاحقاً.

أ- تتلمذ رضا على أفكار الأفغاني:

قبل الشروع في تناول المشروع السياسي الإصلاحي للشيخ رشيد رضا، يجدر بنـا إزالة بعض الشبهات عن حقيقة تتلمذه على يد السيد جمال الدين الأفغاني، رغم نظرة

---

(١) رضا، محمد رشيد، الخلافة (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٤).

(٢) Assad Nimer Busool, *Sheikh Muhammad Rashid Rida' Political Activities: A Struggle for the Revival of an Orthodox* (Salafi) *Islamic State*, unpublished Ph.D. dissertation, University of California, Berkeley, 1974, pp. 6-7.

كثير من الباحثين للشيخ رشيد رضا على أنه تلميذ للإمام محمد عبده دون السيد الأفغاني. ويمكن تفسير تلك النظرة بعاملين رئيسين. فأولاً لم يسبق لرشيد رضا أن التقى الأفغاني لقاءً شخصياً. وثانياً فإن رشيد رضا لم يعدّ نفسه تلميذاً للأفغاني بينما ردد كثيراً أنه الوريث الفكري لعبده. ففي كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده" كما في سيرته الذاتية التي دوَّنها قبل فترة قصيرة من وفاته، أكد رشيد رضا أنه كان لعبده كالمريد الصوفي لشيخه، وذلك مع فرق واحد هو أن رضا كان يصر على فهم تعاليم عبده ويتبع منها ما يعتقد صوابه[1]. إلا أن كلاً من هذين العاملين يمكن الرد عليه بما يدحضه.

فأولاً صحيحٌ أن رشيد رضا لم يلق الأفغاني شخصياً، ولكن ليس من الضروري أن يلق التلميذ معلمه شخصياً لكي يتأثر بأفكاره وتعاليمه. ومن جانب آخر، فرغم أن رضا لم يلق الأفغاني شخصياً، إلا أنه قد بعث إليه برسالة مثنياً على أفكاره وجهوده الإصلاحية وسائلاً إياه أن يقبله في طائفة مريديه. لكن الأفغاني لم يتمكن من الرد على تلك الرسالة، إذ كان آنذاك في سجنه الذهبي في أحد القصور السلطانية بالآستانة محروماً من استعمال القلم والحبر والورق مخافة إثارته للجماهير ضد حكامها[2].

وثانياً رغم أن رضا لم يعد نفسه تلميذاً مباشراً للأفغاني، فإن إعجابه بالأفغاني واضح وجلي. فكثيراً ما امتدح رضا الأفغاني واصفاً إياه بحكيم الشرق وموقظه. كما أنه فضَّله ضمنياً على معلمه المباشر محمد عبده، حيث لقَّب رضا الأفغاني بالمعلم الأول بينما لقَّب عبده بالمعلم الثاني. وربما أهم من ذلك وذاك هو ما صرَّح به رضا من أن خطته الأصلية كانت اللِّحاق بالأفغاني واتباعه، وأنه لم يفكر في الهجرة إلى مصر لمصاحبة عبده إلا بعد فشل خطته الأصلية بوفاة الأفغاني في سجنه. بل إنه صرَّح

(١) Al-as'ad Nimer Busool, *Sheikh Muhammad Rashid Rida Political Activities: Struggle for the Revival of an Orthodox* (Salafi) *Islamic State*, pp 82-83

(٢) المراكشي، محمد صالح، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار ١٨٩٨-١٩٣٥، (تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٣)، ص٣٦.

أيضاً بأن أحد دوافعه للِّحاق بعبده كانت رغبته في الاستفادة من خبرة عبده مع الأفغاني[1]. فلو أن رشيد رضا التحق بالأفغاني، أو لو أن الأفغاني رد على رسالة رشيد رضا رداً إيجابياً، لكان من المحتمل أن تتغير حياته تغييراً جذرياً وأن تتخذ مساراً غير الذي أخذته بالفعل، ولكانت إحدى حجتينا في هذه الورقة غير موضع شك أو جدل.

إذن كان رضا معجباً بالأفغاني، فهل كان عضواً في تنظيمه السري "العروة الوثقى"؟ فمن المعلوم أن الأفغاني أنشأ منظمة سرية في باريس في حوالي منتصف العقد التاسع من القرن التاسع عشر وأطلق عليها "تنظيم العروة الوثقى". وتشير المعلومات القليلة المتاحة لدينا عن ذلك التنظيم أن هدفه الرئيسي كان إثارة المسلمين وتحريضهم على الثورة ضد الحكم الاستعماري لبلادهم. وقد تشكل التنظيم من خلايا سرية كانت تعمل أساساً في مصر والهند[2]. وفي الواقع لا يوجد دليل على أن رشيد رضا كان عضواً في ذلك التنظيم، ولكن ما تتعدد أدلته هو أن رضا كان متأثراً بأفكار الأفغاني كما عرضها في المجلة التي أصدرتها قيادة ذلك التنظيم عام ١٨٨٤ وحملت اسمه: العروة الوثقى. ورغم أن المجلة لم تستمر سوى بضعة أشهر، فإنها كانت واسعة الانتشار والتأثير في العالم الإسلامي ولاسيما في مصر والهند.

"كانت المجلة تدعو إلى الوحدة الإسلامية وتحث المسلمين في كل أصقاع الأرض على الوحدة واستعادة أمجاد الإسلام الضائعة. وقد هدفت على نحو خاص إلى تحرير مصر من الاحتلال البريطاني عن طريق إثارة الرأي العام في مصر والهند. ويمكن تلخيص الأفكار التي عرضتها المجلة في فكرتين رئيسيتين. الأولى هي أن الإسلام الصحيح قد أفسده الجهل ومن ثم يجب إصلاحه وإلا فسيواجه العالم الإسلامي انهياراً تاماً. والثانية

(١) رضا، محمد رشيد، الرحلة السورية الثانية: تمهيد، في: يوسف إيبش (محقق)، رحلات الإمام محمد رشيد رضا، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩)، ص٢١١.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول تنظيم العروة الوثقى انظر: عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، (بيروت: دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٨)، ص٢٥٤-٢٦٢.

هي أن حكام المسلمين قد خانوا شعوبهم واتبعوا أهواءهم وما تمليه عليهم دوافعهم الشخصية من الجشع والتكبر في الأرض، فجعلوا بلادهم مرتعاً خصباً للأجانب. وكانت عاقبة ذلك أن تداعى الأوروبيون على بلاد المسلمين منتهزين فرصة عدم التزام المسلمين بدينهم، ومن ثم سعوا إلى تدمير الوحدة الدينية للشعوب المسلمة"[١].

لقد كانت مجلة العروة الوثقى ثورية المحتوى والنبرة. ورغم أن الأفغاني كان رئيساً لتنظيم العروة الوثقى ومسئولاً عن إصدار مجلته، فإنه لم يكن رئيساً لتحرير المجلة، إذ كان يتولى هذا المنصب تلميذ الأفغاني المقرب إليه آنذاك الشيخ محمد عبده. ومع ذلك فإننا لا نشك في أن الأفكار التي عبرت عنها المجلة كانت أفكار الأفغاني، بل وهذا ما أكده الشيخ محمد عبده نفسه[٢]. وقد أدى الحظر الذي فرضه الاستعمار البريطاني على المجلة في مصر والهند إلى توقفها نهائياً. ورغم الحظر الذي فرضته السلطات العثمانية على المجلة، فإن رشيد رضا لم يكن فقط حريصاً على اقتناء المجلة وشغوفاً بقراءة جميع أعدادها، بل إنه نسخ كثيراً من مقالاتها وسعى لنشرها بين الناس في بلدته بالشام[٣]. وقد أكد رضا لاحقاً في مجلته "المنار" أن مجلة العروة الوثقى كانت تعمل فيه عمل السحر[٤]، وأنها غيرت مجرى حياته[٥]. كما أعاد رضا نشر كثير من مقالاتها في "المنار" تحت عنوان "المقالات الجمالية[٦].

---

(١) انظر: Assad Nimer Busool, op. cit., p 48.

(٢) جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تقديم وتحقيق عمارة، محمد، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩) الجزء الثاني، ص٣٣٩-٣٤٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول تأثر رشيد رضا بمجلة العروة الوثقى انظر العدوي، إبراهيم أحمد، رشيد رضا: الإمام المجاهد، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر والدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت)، ص٦٠-٨٦.

(٤) السلمان، محمد بن عبد الله، رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، (الكويت: مكتبة المعلا، ١٩٨٨)، ص٢٠٢-٢٠٨.

(٥) الجندي، أنور، تاريخ الصحافة الإسلامية، المنار (القاهرة: دار الأنصار، ١٩٨٣)، ج١، ص٢٥-٢٨.

(٦) المرجع السابق، ص ٢١٥؛ الشوابكة، أحمد فهد بركات، محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية، (عمان: دار عمار، ١٩٨٩) ص٢١.

ب- بين "العروة الوثقى" و"المنار":

وفي الواقع فإن تأسيس مجلة "المنار" في حد ذاته لدليل على تأثر رضا بأفكار الأفغاني الإصلاحية وحركته السياسية. فقد ذكر رضا أنه أنشأ "المنار" لكي تخلف "العروة الوثقى" وتنشر رسالتها، وخاصة فيما يتعلق بالجامعة الإسلامية[1]. فإلى أي مدى نجحت "المنار" في هذا الشأن؟ وإلى أي حد كانت "المنار" تشبه "العروة الوثقى"؟ فبينما عبَّرت "العروة الوثقى" عن أفكار الأفغاني بكلمات عبده، عبَّرت "المنار" في سنواتها الأولى عن أفكار عبده بكلمات رضا. وكما كان من المحتمل أن يُغيِّر عبده من وجهة "العروة الوثقى" نحو التركيز على الإصلاح الديني والتربوي دون السياسي لو أنه واصل إصدار المجلة بعد فراق الأفغاني ولاسيما بعد عودته إلى مصر، فإن رشيد رضا قد غيّر بالفعل من وجهة "المنار" بعد وفاة عبده لكي تصبح أكثر اهتماماً بالإصلاح السياسي. وقد كانت المجلتان سلفيتي النزعة، بمعنى أنهما حرصا على تدعيم حججهما بأسانيد من القرآن والسنة[2]. كما كانت كلتاهما حرباً على التقليد الأعمى في المسائل الدينية الذي كان متفشياً بين المسلمين، إذ دعتا إلى فتح باب الاجتهاد بل ومارستاه بالفعل في المسائل الفقهية التي تعرضتا إليها.

وبينما هاجمت "العروة الوثقى" قوة استعمارية بعينها هي بريطانيا، أدانت "المنار" الاحتلال الأجنبي لأقاليم مسلمة بعينها وهي الولايات العربية في الدولة العثمانية[3]. وكما كان مقر "العروة الوثقى" بعيداً عن أيدي أعدائها السياسيين وهم بريطانيا وبدرجة أقل حكام المسلمين، فإن مقر "المنار" كان بعيداً أيضاً عن أيدي أعدائها السياسيين وهم الحكومة العثمانية وبعض حكام العرب. وبينما حُظِرَت "العروة الوثقى" في البلاد الإسلامية الخاضعة للاحتلال البريطاني وفي الدولة العثمانية، فإن

(١) السلمان، محمد عبد الله، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٦-٣٠٨. المراكشي، محمد صالح، مرجع سابق، ص ٨٥-٨٦.

(٣) المراكشي، محمد صالح، مرجع سابق، ص ١٧٤.

"المنار" حُظِرَت أيضاً في الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني[1]، ومع ذلك فقد تمتعت كل من المجلتين بنفوذ واسع وتأثير كبير في معظم البلاد الإسلامية، وأسست كل منهما مدرسة فكرية وحركة إصلاحية[2].

ج- تعارض مواقف أستاذي رضا من الإصلاح السياسي:

لم يكن رشيد رضا من الآباء الأوائل لفكرة إقامة دولة إسلامية نموذجية حديثة، أو فكرة إقامة جامعة بين الدول الإسلامية، كما أنه لم يلتق بأول المتحمسين للدعوة إلى تلك الفكرتين وهو السيد جمال الدين الأفغاني. إذ وصلت إليه هذه الأفكار عن طريق مجلة العروة الوثقى وبعض المصلحين الذين تلقوا الفكرة عن الأفغاني ومن بينهم عبد الرحمن الكواكبي.

ولكن النهاية غير المشجعة لمشروع الأفغاني في الإصلاح السياسي ربما أحبطت تفكير رضا المبكر في ذلك الإصلاح. إذ لم يتحقق في حياة الأفغاني أيٍ من أهدافه الثلاثة للإصلاح السياسي. فقد سعى الأفغاني أولاً لبناء دول إسلامية نموذجية في كبرى الدول الإسلامية التي لم تكن قد خضعت بعد للاستعمار في ذلك الوقت. كما جاهد ثانياً لحشد وتعبئة المسلمين ضد الاستعمار الغربي، ولاسيما البريطاني. ودعا ثالثاً الدول الإسلامية المستقلة إلى الاتحاد لحماية استقلالها والمساعدة في تحرير البلاد الإسلامية المستعمرة[3]. وقد تطورت هذه الدعوة لاحقاً لتصبح فكرة الجامعة الإسلامية. إلا أن الأهداف الإصلاحية الثلاثة للأفغاني لم تكن دائماً متسقة مع بعضها البعض. فعلى سبيل المثال، تطلَّب السعي نحو توحيد الدول الإسلامية المستقلة أن يتعاون الأفغاني مع حكام تلك الدول، بينما تطلَّب السعي نحو إصلاح النظم السياسية في الدول الإسلامية أن ينبه الأفغاني الجماهير المسلمة إلى فساد حكامها. وكذلك فإن

(١) رضا، محمد رشيد، الرحلة السورية: تمهيد، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٢) حول أثر المنار في مصر والهند واستانبول انظر: الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ١٥٧-١٧٩.

(٣) جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٦-١٩، ٢٥٦-٢٧١.

السعي نحو تحرير البلاد الإسلامية المحتلة تطلَّب أن يتعاون الأفغاني مع حكام الدول الإسلامية المستقلة وأن يُعَبِّأ الجماهير المسلمة ضد الاستعمار تحت راية الخلافة الإسلامية العثمانية. ولذلك كان على الأفغاني في كثير من الأحيان أن يفاضل بين أهدافه الثلاثة وأن يعدّل وسائل تحقيقها.

غير أن أشد ما أثر في موقف رضا سلباً من العمل السياسي في بداية مشروعه الإصلاحي كان توجيه أستاذه محمد عبده له نحو الجهاد من أجل الإصلاح الديني والتربوي دون السياسي. وفي الواقع فإن آراء محمد عبده لم تكن تشجع على ممارسة العمل السياسي على الإطلاق، وهذا ما ميَّز حركته الإصلاحية عن حركة أستاذه الأفغاني، رغم أن عبده كان يوماً ما من أقرب تلاميذ الأفغاني إليه. فبينما اجتمع الأفغاني وعبده على تحقيق هدف نهائي مشترك هو نهضة الأمة الإسلامية باتباع القرآن والسنة والاستفادة ببعض منجزات الحضارات الأخرى، وعلى الأخص الحضارة الغربية، فإنهما اختلفا حول الجوانب الأكثر أهمية و المناهج الأولى بالإتباع لإصلاح أحوال المسلمين. وبعبارة أخرى، اختلف الأفغاني وعبده حول الأهداف والوسائل المرحلية المناسبة للإصلاح. فرغم ما للأفغاني من إسهامات إصلاحية في مجالات العقيدة والفلسفة[1]، إلا إنه كرّس معظم حياته للإصلاح السياسي في العالم الإسلامي، وكانت دعوة الجامعة الإسلامية جانباً من ذلك الإصلاح. وفي المقابل ناضل عبده من أجل الإصلاح الديني والتعليمي مقلِّلاً من أهمية السياسة في العمل الإصلاحي في العالم الإسلامي. ولعل أهم ما ميّز بين حركتي الأفغاني وعبده فيما يتعلق بالإصلاح السياسي هو تباين مواقفهما من إصلاح النظم السياسية في الدول الإسلامية والتحرر من الاستعمار والوحدة الإسلامية.

(١) انظر على سبيل المثال تعليقاته على شرح الدواني للعقائد العضدية في: جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢١١-٤٣٢. كما كتب الأفغاني رسالة بالفارسية بعنوان "في الرد على الدهريين".

د- الإصلاح الدستوري وإقامة دولة إسلامية نموذجية:

لقد كان أول ما دعا إليه الأفغاني من مشروعه الإصلاحي السياسي وعمل من أجله هو إقامة دولة إسلامية نموذجية في بلد إسلامي مُهَيَّأ لذلك[١]. والدولة الإسلامية النموذجية عند الأفغاني هي دولة مستقلة تلتزم بالقرآن والسنة والشورى والمبادئ الدستورية[٢]. وقد وقع اختيار الأفغاني على مصر في سبعينات القرن التاسع عشر لكي تكون هدف مشروعه الإصلاحي السياسي، فطالما اعتبر الأفغاني مصر أصلح الدول الإسلامية لهذا الغرض[٣]. وفي مصر واجه الأفغاني النظام المستبد للخديوي إسماعيل وعدّه العقبة الرئيسية أمام الإصلاح السياسي و إقامة الدولة الإسلامية النموذجية، كما عدّ جهل المصريين وغياب وعيهم السياسي من أهم عوامل ازدهار ذلك النظام الاستبدادي الحاكم[٤]. ولذلك جعل الأفغاني هدف حركته الإصلاحية الأساسي هو التخلص من الحكم التسلطي للخديوي إسماعيل، وذلك بالاعتماد أساساً على الشعب المصري و ليس الفئة الحاكمة الدخيلة عليه. كما جعل منهجه الرئيسي لتحقيق ذلك الهدف هو توعية الجماهير بفساد النظام الحاكم وذلك بتقويمه بالمعايير الإسلامية والغربية الحديثة.

و قد برع الأفغاني في استخدام مهاراته التنظيمية العالية و قدراته الفائقة على مخاطبة وتعبئة الجماهير وذلك من أجل بناء قاعدة شعبية عريضة مطالبة بالإصلاح، فخاطب فئات ذات خلفيات ثقافية واجتماعية وتعليمية ومهنية مختلفة. فقد عبَّأ العوام وحثهم على الثورة ضد الحكومة التسلطية. كما حصل على دعم قطاع هام من الطبقة الوسطى الناشئة آنذاك، بل وبدا ولي العهد الأمير توفيق مقتنعاً بآرائه الإصلاحية

(١) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني..، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٢-٢٣٩.

(٣) جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٩-٢٠.

(٤) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني..، مرجع سابق، ص ٢٧-٢٨، ٢٣٠-٢٣٢.

السياسية. وكانت أفكار الأفغاني حول الإصلاح السياسي مقنعة أيضاً للأفندية ذوي الخلفيات التعليمية الغربية العصرية والمشايخ ذوي الخلفيات التعليمية التقليدية. و نجح الأفغاني أيضاً في تجنيد بعض كبار ضباط الجيش بمن فيهم أولئك الذين قادوا الثورة العرابية فيما بعد. والتحق الأفغاني لفترة قصيرة بالمحفل الماسوني الشرقي وذلك للدعوة إلى أفكاره الإصلاحية بين الأجانب و المنبهرين بالغرب. وتتويجاً لتلك الجهود أسس الأفغاني منظمة سياسية سرية هي الحزب الوطني الحر. وقد لعب هذا الحزب دوراً هاماً في الإطاحة بالخديوي إسماعيل عام ١٨٧٩[١].

إلا أن الأفغاني لم يحقق هدفه الإصلاحي السياسي، إذ سرعان ما انقلب عليه الأمير توفيق بعد أن أصبح خديوي مصر. فقد عدّ الخديوي نجاح الأفغاني خطراً على حكمه، لذلك قرر طرده من البلاد. وبالفعل فقد خرج الأفغاني من مصر منفياً إلى الهند التي كانت آنذاك مستعمرة بريطانية، حيث خضع للإقامة الجبرية وانقطعت صلته بالعالم الخارجي. إلا أن أتباعه في مصر سعوا إلى إنجاز مهمته الإصلاحية السياسية. ففي عام ١٨٨١ قاد مجموعة من الضباط المصريين بزعامة أحمد عرابي عصياناً عسكرياً سرعان ما تحول إلى ثورة بتأييد الجماهير والطبقة الوسطى والأفندية والمشايخ. ونجحت الثورة في تحقيق الهدف السياسي الرئيسي للأفغاني، ألا وهو إقامة نظام ملكي دستوري يخضع لمراقبة مجلس نيابي منتخب شعبياً. ولكن الثورة ونظامها السياسي الوليد أُجهضا على يد القوات البريطانية التي غزت مصر عام ١٨٨٢ باسم الدفاع عن الخديوي والأجانب.

أما محمد عبده فلم يحبذ الانشغال بإصلاح النظم السياسية في الدول الإسلامية. فعقب رحيل الأفغاني عن مصر وتولي عبده رئاسة تحرير صحيفة "الوقائع المصرية" الرسمية، كتب عبده فيها منتقداً الدعوة إلى الإصلاح الدستوري. إذ رأى عبده أن الشعب المصري -الذي كان قد اعتمد عليه الأفغاني سابقاً لإقامة دولة إسلامية

(١) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني...، ص ٥٧-٦٢، ٢٤٤-٢٤٥.

نموذجية- لم يكن على درجة كافية من التعليم والنضج تسمح بإقامة نظام حكم دستوري[1]. ورغم أن عبده أعاد النظر في ذلك الرأي أثناء الثورة العرابية (١٨٨١-١٨٨٢)، حيث رأى أن الشعب المصري قد أصبح مؤهلاً للحكم الدستوري ومن ثم تعاون عبده مع زعماء الثورة، إلا أن أفكاره لم تبلغ درجة ثورية أفكار القادة العسكريين والزعماء الشعبيين للثورة[2]. وعلى أية حال فإن عبده عاد إلى أفكاره القديمة المرغِّبة عن الإصلاح السياسي بعد فشل الثورة العرابية والاحتلال البريطاني لمصر. إذ خلص إلى أن الشرق لا ينهض به إلا مستبد عادل[3]، وهي الفكرة التي انتقدها الأفغاني بشدة، إذ رأى أن القائد يجب أن يكون عادلاً وقوياً وليس مستبداً[4].

هـ- محاربة الاستعمار وإقامة جامعة إسلامية:

وبالمثل اختلف عبده مع الأفغاني فيما يتعلق بقضيتي التحرر من الاستعمار والوحدة الإسلامية. فقد كان الاستعمار البريطاني لمصر نقطة تحول في فكر الأفغاني وحياته، ليس فقط لأن السلطات الاستعمارية البريطانية في الهند أطلقت سراحه وسمحت له بالسفر إلى أوروبا بعد أن ثبَّت الاستعمار البريطاني أقدامه في مصر، وإنما أيضاً لأن الأفغاني أعاد النظر في أفكاره الإصلاحية السياسية بما فيها آراؤه عن معوقات الإصلاح السياسي في العالم الإسلامي وأهداف تحقيق ذلك الإصلاح ووسائله. فلم تعد النظم الاستبدادية في الدول الإسلامية بالنسبة للأفغاني هي العقبة الكبرى الوحيدة أمام الإصلاح السياسي، وإنما أصبح الاستعمار الغربي عقبة كبرى أخرى بنفس درجة خطورة النظم الاستبدادية. وبينما عدّ الأفغاني جهل المسلمين وغياب وعيهم السياسي أهم عوامل ازدهار النظم الاستبدادية، فإنه عدّ انقسامات المسلمين وتمزق وحدتهم السياسية أهم العوامل التي

(١) عمارة، محمد، الإمام محمد عبده: مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص١٨٧-١٨٩، (بيروت: دار الشروق، ١٩٨٨).

(٢) محمد عبده، الأعمال الكاملة، تقديم وتحقيق عمارة، محمد، ج١، ص٥٥-٥٧، (بيروت: دار الشروق، ١٩٩٣).

(٣) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٨٤٥-٨٤٦.

(٤) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٨٧؛ جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٣٢٩.

مهدت الطريق لاستعمار العالم الإسلامي[١]. ولذلك جاهد الأفغاني لتحرير البلاد الإسلامية المستعمرة وإقامة جامعة إسلامية بين الدول الإسلامية المستقلة.

ورغم جهود الأفغاني في محاربة الاستعمار إلا أنه من غير الواضح، ما إذا كانت مواقفه المعادية للاستعمار متعلقة فقط بالاستعمار البريطاني. فحقيقة أن تنظيم العروة الوثقى كان مقره باريس وأن مجلته لم تدن بشكل صريح الاحتلال الفرنسي في شمال إفريقيا توحي بأن الأفغاني ربما سعى لاستغلال الصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا لصالح تحرير البلاد الإسلامية الخاضعة للاستعمار البريطاني. كما أنه اقترح ذات مرة أن تتعاون روسيا وإيران وأفغانستان لتحرير الهند المسلمة من الاستعمار البريطاني مقابل تقسيمها بينهم[٢].

أما عبده فقد تخلى عن أفكار أستاذه الأفغاني حول محاربة الاستعمار والوحدة الإسلامية، وذلك بعد أن سمحت له سلطات الاحتلال البريطاني بالعودة إلى مصر من منفاه في بيروت شريطة عدم قيامه بأي نشاط سياسي[٣]. فلم يتعاون عبده قط مع الحركة الوطنية المصرية التي كانت تناضل في ذلك الوقت من أجل تحرير مصر من الاحتلال البريطاني. بل إن عبده عدّ الزعيم الوطني مصطفى كامل مجرد محرض على إثارة الجماهير[٤]. وقد بلغ رفض عبده تحدي سلطات الاحتلال البريطاني أن رأى أن على المصريين الاهتمام بالإصلاح التربوي دون السياسي حتى لو أدى ذلك إلى انتظارهم قروناً قبل تحرير بلادهم من الاستعمار[٥]. وبالطبع فقد كان هذا الموقف مبعث اطمئنان ورضا سلطات الاحتلال، حتى إنّها قبلت تعيين عبده مفتياً للديار المصرية (١٨٩٩-١٩٠٥) وأيدته في صراعه مع مشايخ الأزهر ذوي الاتجاه المحافظ

(١) حول رأي الأفغاني في الاستعمار انظر: جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص٧١-٧٩؛ وحول رأيه في تفرق المسلمين انظر: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٢٥-٣٣.

(٢) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني ...، مرجع سابق، ص ١١٠-١١١.

(٣) عبده، محمد، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٣٢.

(٤) المرجع السابق، الجزء الأول ص ٩٥.

(٥) عمارة، محمد، الإمام محمد عبده ...، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

الذين عدّهم عبده أحد أخطر معوقات الإصلاح الديني والتربوي. وفي الواقع فإن موقف عبده المهادن للاستعمار لم يكن متعلقاً بمصر فقط ، بل كان موقفاً مبدئيا. إذ نصح عبده الشعبين التونسي والجزائري بالاهتمام بالإصلاح الديني والتربوي وعدم الانخراط في العمل السياسي أو الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي[١].

أما عن موقف عبده من فكرة الجامعة الإسلامية، فلا يُعرَف عن عبده أنه طوَّر نظرية أو برنامجاً للوحدة الإسلامية على غرار مشروع الأفغاني الذي سنتناوله لاحقاً، إلا أنه رأى أن المسلمين لم يعد لهم إمام إلا القرآن[٢]. كما لا يُعرَف عن عبده أنه عمل على إنجاز فكرة الجامعة الإسلامية بعد أن فارق أستاذه الأفغاني نتيجة انهيار تنظيم العروة الوثقى وتوقف مجلته عن الصدور[٣]. وكذلك فإن رؤية عبده للدولة العثمانية تبدو مضطربة. فبينما كان عبده يمتدحها ويمتدح سلطانها عبد الحميد حين يكون في أقاليمها، على نحو ما فعل حين كان منفياً في بيروت وحين زار الآستانة عام ١٩٠٣[٤]، فإنه ذكر لرشيد رضا في مصر أنه يمقت الدولة العثمانية وسلطانها الذي وصفه بالجبن والفشل[٥].

ولعل الاختلاف الكبير بين الآراء الإصلاحية لكل من الأفغاني وعبده يتضح أكثر بذكر الحادثة التالية. فبينما كان الأفغاني وعبده في باريس لقيادة تنظيم العروة الوثقى وإصدار مجلته اقترح عبده على الأفغاني اعتزال العمل السياسي وأن يرحلا إلى منطقة نائية لا تصل إليها يد الاستبداد أو الاستعمار، وذلك لتعليم مجموعة منتقاة من نابغة النشء المسلم وإعدادهم لقيادة بلادهم ومجتمعاتهم نحو الإصلاح. وقد رفض الأفغاني هذه الفكرة كلياً وقال لعبده "إنما أنت مُثبِّط"[٦].

---

(١) عبده، محمد، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٩١-٩٢.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٨٦٥.

(٣) حول دور محمد عبده في تنظيم العروة الوثقى ومجلتها انظر: محمد عبده، مرجع سابق، ج١، ص٦٥٩-٧١٢.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٨٧٣-٨٧٥؛ عمارة، محمد، الإمام محمد عبده ...، مرجع سابق، ص١١٦-١٢٤.

(٥) عبده، محمد، مرجع سابق، الجزء الأول، ص٨٦٣-٨٦٤، ٨٧١.

(٦) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٧٣.

المبحث الثاني:

نحو دولة إسلامية نموذجية: دولة عثمانية على أساس إسلامي دستوري

يعود انخراط رشيد رضا في العمل السياسي إلى ما قبل وفاة أستاذه محمد عبده، بل إلى ما قبل هجرته من سوريا إلى مصر. إذ كانت هذه الهجرة ذاتها حركة سياسية قصد بها رضا الخروج من قبضة الحكم العثماني التسلطي في سوريا واستغلال مناخ الحرية النسبي في مصر للتعبير عن أفكاره الإصلاحية[١]. إلا أن النشاط السياسي لم يكن من أولويات رضا في ذلك الوقت، إذ كان معنياً بإصلاح ذاته قبل إصلاح مجتمعه وبلده[٢]. كما أن آراء عبده غير المشجعة على الإصلاح السياسي أثّرت في رؤية رضا الإصلاحية في فترة مبكرة من إقامته بمصر. فقد وافق عبده على أن يكون مرشداً للمجلة التي عزم رضا على تأسيسها شريطة ألا تلتزم بموقف سياسي أو تتعرض لقضايا سياسية[٣]. ورغم أن رضا قد وافق مُكرهاً على تلك الشروط[٤]، إلا أنه لم يلتزم بها حرفياً. فقد تعرض لمناقشة بعض القضايا السياسية المتعلقة بالدولة العثمانية في الأعداد الأولى من "المنار". فقد دافع عن الدولة وانتقد أعداءها[٥]، كما دعا إلى إصلاح إدارتها[٦]. ولعل أبرز الأعمال السياسية التي نشرها رضا في "المنار" في سنواتها الأولى هو كتاب "أم القرى" الذي دعا فيه عبد الرحمن الكواكبي إلى إصلاح سياسي جذري في العالم الإسلامي، رغم أن رضا لم ينشر بعض فقرات الكتاب التي عدّها مسيئة للدولة العثمانية[٧].

---

(١) السلمان، محمد عبد الله، مرجع سابق، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) انظر: Assad Nimer Busool, op. cit., pp. 37-39.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٠. الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ٣١٣.

(٤) الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٥) المراكشي، محمد صالح، مرجع سابق، ص ١٠٩-١١٧.

(٦) الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ١٨٧-١٨٨.

(٧) المراكشي، محمد صالح، مرجع سابق، ص ١١٥.

وعلى أية حال فإن التزام رشيد رضا بآراء عبده غير المشجعة على الإصلاح السياسي لم يدم طويلاً ولم يستمر عقب وفاة عبده عام ١٩٠٥. إذ سعى رضا إلى الجمع بين الآراء الإصلاحية لأستاذيه الأفغاني وعبده، وذلك بالعمل في سبيل الإصلاح الديني والتربوي على نهج الإمام محمد عبده، والجهاد في سبيل الإصلاح السياسي على نهج السيد الأفغاني. ولعل أهم ما سعى رضا لتحقيقه من مشروع الأفغاني للإصلاح السياسي هو محاولة بناء دولة إسلامية نموذجية وإقامة جامعة إسلامية.

إصلاح الحكومة المركزية العثمانية:

عندما توفى الإمام محمد عبده كان رضا قد بلور بالفعل رؤية للإصلاح السياسي في الدولة العثمانية وإقامة دولة إسلامية نموذجية فيها. فقد دعا رضا مثلما دعا الأفغاني من قبل إلى إقامة نظام سياسي إسلامي دستوري يلتزم بمبادئ الشورى والعدل والحرية، يشارك فيه الشعب في الحياة السياسية، ويلتزم فيه السلطان باستشارة زعماء الشعب وممثليه وتخضع الحكومة لمساءلتهم[1]. وبعبارة أخرى، فإن رضا رأى أن النظام السياسي الفاسد في الدولة العثمانية هو الأولى بالإصلاح.

وقبل الانقلاب العثماني الأول عام ١٩٠٨ تشابهت أساليب رضا في الدعوة إلى ذلك الإصلاح السياسي إلى حد كبير مع الأساليب التي اتبعها الأفغاني من قبل لتحقيق ذات الغاية. فقد فضَّل رضا استخدام وسائل الإعلام وقيادة أنشطة سرية لإنجاز هدفه. إذ خصص رضا أولاً مساحة متزايدة من مجلته "المنار" لمناقشة قضايا الإصلاح السياسي في الدولة العثمانية. وعمل ثانياً مع غيره من الرعايا العثمانيين في مصر لإنشاء منظمة سرية هي جمعية الشورى العثمانية، التي ضمت ممثلين عن معظم الجماعات العرقية والدينية في الدولة العثمانية، وكانت نشطة في الدعوة إلى إصلاح الدولة العثمانية في مصر وبعض الولايات العثمانية وبعض الدول الغربية. وقد ترأس رشيد رضا هذه

(١) الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ١٨٨.

الجمعية عام ١٩٠٦[١]. وكانت الجمعية تشبه إلى حد كبير الحزب الوطني الحر الذي أنشأه الأفغاني في مصر قبل ترحيله منها، وذلك مع فرق بنيوي واحد هو أن مقر جمعية الشورى العثمانية كان في إقليم لا يخضع للحكم العثماني فعلياً.

وبينما فشل الحزب الوطني الحر في تحقيق الإصلاح السياسي الجذري الذي كان ينشده، والذي كان يشمل إقامة نظام جمهوري في مصر، تحقق جزئياً الهدف الإصلاحي الأكثر اعتدالاً الذي كانت تسعى إليه جمعية الشورى العثمانية حين أُجبر السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٨ على إعادة العمل بالدستور العثماني الذي كان قد عطله قبل ثلاثة عقود من الزمان. وفي الواقع لم تكن جمعية الشورى العثمانية ذات التوجه الإسلامي هي التي قامت بالدور الرئيسي في إجبار السلطان على ذلك، بل أجبرته لجنة الاتحاد والترقي ذات التوجه الغربي والأيديولوجية القومية التركية على إحداث ذلك التغيير، رغم تأكيد رشيد رضا أن جمعيته ساهمت في ذلك التغيير[٢]. وفي البداية لم يُعِر رضا اهتماماً كبيراً لاختلاف التوجه بين جمعيته ولجنة الاتحاد والترقي، فرحب بالتغييرات السياسية التي فرضتها اللجنة.

وبتحقيق ذلك الهدف، أي إعادة العمل بالدستور، انحلّت جمعية الشورى العثمانية وانضم كثير من أعضائها إلى لجنة الاتحاد والترقي. أما رضا فقد عدّل بعض أساليبه في العمل على إقامة دولة إسلامية عثمانية نموذجية. فبينما استمر في استخدام مجلته كمنبر للدعوة إلى الإصلاح السياسي، قام رضا لأول مرة منذ وصوله مصر بزيارة وطنه سوريا حيث ألقى عدة خطب في منتديات سياسية وثقافية واجتماعية، حاثّاً أهالي

(١) لمزيد من التفاصيل حول جمعية الشورى العثمانية انظر: المرجع السابق، ص ٢٣٢-٢٣٤؛ وانظر أيضاً:
Assad Nimer Busool, op. cit., pp. 87-90.

(٢) انظر: Assad Nimer Busool, op. cit., pp. 92-93.

الشام على دعم الحكومة العثمانية الجديدة والمشاركة في الإصلاح السياسي[1]. فقد كان رشيد رضا خطيباً مفوهاً تماماً كما كان الأفغاني.

وشرع رضا في التعاون مع الحكومة العثمانية الجديدة لتحقيق ما ظنه هدفاً مشتركاً. وعلى خلاف الأفغاني الذي اضطُّر للتعاون مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ذي النزعة المحافظة، فقد تعاون رضا مع حكومة ظنها أكثر انفتاحاً للإصلاح الإسلامي رغم توجهها القومي. فبعد توقف مجلة العروة الوثقى عن الصدور اختار الأفغاني أن يتعاون مع الحكام المسلمين ليس فقط من أجل توحيد بلادهم والمساعدة في تحرير البلاد المسلمة المستعمَرة، بل وأيضاً من أجل إقامة دول إسلامية نموذجية في البلاد التي يحكمونها. ومع ذلك فإن خبرة الأفغاني في التعامل مع حكام إيران والدولة العثمانية تشير إلى عدم جدوى هذا الأسلوب في تحقيق أيٍ من الأهداف الإصلاحية الثلاثة للأفغاني.

فحينما اختار الأفغاني إيران لتكون بؤرة مشروعه الإصلاحي السياسي وانتقل للإقامة فيها في الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٨٩١، لم يسع للإطاحة بالشاه ناصر الدين كما سعى من قبل في مصر للإطاحة بالخديوي إسماعيل، وإنما حاول إقناع الشاه الإيراني بمزايا إقامة نظام سياسي يرتكز على دستور إسلامي ومجلس نيابي منتخب شعبياً[2]، كما دعا الفرس والأفغان لإقامة وحدة بينهما[3]. إلا أن العلاقة بين الأفغاني والشاه وصلت إلى نهاية مأساوية، إذ خلص الأفغاني إلى أن الشاه يتلاعب به لتحقيق مصالحه الشخصية، وأنه مُرَحِّب بالنفوذ المتزايد للشركات البريطانية في بلاده. ولذلك تحول الأفغاني ضد الشاه، فقام الشاه بطرد الأفغاني من البلاد بطريقة مهينة للغاية ظل

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه الرحلة انظر: محمد رشيد رضا، سياحة صاحب المنار في سوريا، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص٩-٥٣.

(٢) جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص٢٨٣-٢٨٥.

(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٢٦٥-٢٧١.

الأفغاني يتذكرها بألم وغضب ومرارة حتى وفاته[1]. وفي المقابل نجح الأفغاني في إقناع المرجع الشيعي الأعلى الملا الشيرازي بإصدار فتوى بتحريم التعامل مع شركة التبغ البريطانية ذات الامتيازات الخاصة في إيران[2]. وبالفعل أصدر الملا تلك الفتوى، وكانت استجابة الشعب الإيراني لها شبه إجماعية. وأخيراً فقد اغتيل الشاه ناصر الدين على يد رجل يُعتَقَد أنه من المتأثرين بالأفغاني[3].

وحين أعاد الأفغاني النظر في اختيار الدولة التي يجب أن تكون بؤرة مشروعه الإصلاحي السياسي رأى أن الدولة العثمانية هي الأصلح لهذا الغرض. فقد كان الأفغاني يعتبرها أقوى الدول الإسلامية المستقلة آنذاك وأكثرها ندية للدول الأوروبية، وبالتالي فهي الأقدر على حماية الإسلام وتوحيد بلاده ومواجهة الاستعمار في أراضيه. ولذلك أعلن الأفغاني ذات مرة مبايعته للسلطان عبد الحميد خليفة للمسلمين، ودعاه لإصلاح النظام السياسي في الدولة العثمانية وتبني فكرة الجامعة الإسلامية كسياسة رسمية في علاقاتها الخارجية. كما وصفه ذات مرة بأنه حاكم ذكي وشجاع، إذ كان الأفغاني يأمل أن يمارس السلطان نفوذه على جميع المسلمين من أجل تحقيق الإصلاح المنشود. إلا أن السلطان انتهز إجابة الأفغاني لدعوته بزيارة الآستانة لمناقشة بعض قضايا الإصلاح السياسي وفرض عليه الإقامة الجبرية في أحد القصور السلطانية مخافة إثارته للجماهير، ولم يسمح له بالسفر مرة أخرى. أما الأفغاني فقد أصابه الإحباط من خداع السلطان له وتلاعبه به وعدم رغبته في إقامة نظام سياسي دستوري قائم على الشورى وعدم جديته في إقامة جامعة إسلامية. ولذلك تحول الأفغاني ضد

(١) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني...، مرجع سابق، ص ٧٦-٧٧.

(٢) انظر نص الرسالة التي وجهها جمال الدين الأفغاني إلى كبار علماء الشيعة حول إصدار هذه الفتوى في: جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٢٧٢-٢٧٦.

(٣) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني...، مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩.

السلطان وانتقده بشدة وأعلن براءته من مبايعته خليفة للمسلمين لأنه لم يعد في نظر الأفغاني يستحق ذلك اللقب[١].

ورغم تغير نظام الحكم العثماني بعد انقلاب عام ١٩٠٨، إلا أن رشيد رضا لم يكن أسعد حظاً من الأفغاني في التعاون مع السلطة العثمانية. فقد زار رضا الآستانة وقضى فيها عاماً كاملاً (١٩٠٩-١٩١٠) يناقش مشروعين إصلاحيين: الأول هو إنشاء "مدرسة الدعوة والإرشاد"، والثاني هو جسر الفجوة بين العرب والأتراك التي أحدثتها سياسة التتريك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وخلال هذه الزيارة التقى رضا بكبار المسئولين في الحكومة العثمانية الجديدة ولجنة الاتحاد والترقي، ومن بينهم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وشيخ الإسلام (مفتي الديار) وبعض كبار الضباط[٢]. ومع ذلك فقد كانت الحكومة العثمانية الجديدة شديدة الالتزام بالمبادئ القومية التركية على نحوٍ أصم آذانها عن الاستماع إلى مقترحات رضا حول الإصلاح الإسلامي. فقد كانت سياساتها قائمة على إعلاء العنصر التركي والحط من شأن العناصر العثمانية الأخرى. فبدلاً من إصلاح ما أفسدته سياسة السلطان عبد الحميد الثاني، تمادت الحكومة الجديدة في سياسة تتريك الشعوب العثمانية غير التركية، بل واتخذت في هذا السبيل خطوات غير مسبوقة، مثل إعلان اللغة التركية لغة رسمية وحيدة في كافة أرجاء السلطنة العثمانية وفي كافة مجالات الحياة العامة من تعليم وإعلام وقضاء وغير ذلك. كما سعت الحكومة الجديدة إلى تقوية روابط الدولة العثمانية بالشعوب التركية في وسط آسيا غير الخاضعة للسيادة العثمانية، وذلك من أجل إقامة جامعة طورانية تضم جميع الأتراك[٣]. وفي المقابل فإن الحكومة الجديدة لم

---

(١) حول موقف الأفغاني من الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد انظر: جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، ج١، ص٤٤، ٧٩؛ ج٢، ص١٦-٢٢؛ عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني..، مرجع سابق، ص٨٠٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه الرحلة انظر: محمد رشيد رضا، رحلة إلى استانبول، في: المرجع السابق، ص٥٥-٥٧.

(٣) انظر: Assad Nimer Busool, op. cit., pp. 142-147.

تهتم بمصالح الشعوب العثمانية غير التركية و لم تبالِ بالأخطار التي كانوا يتعرضون لها من الخارج. ولعل أوضح مثال على ذلك هو انسحاب الوحدات العسكرية العثمانية من ليبيا دون قتال يذكر فور غزو الطاليان لها عام ١٩١١[١].

وعارض رضا بشدة سياسات الحكومة العثمانية الجديدة التي تميز بين الرعايا العثمانيين، وهاجم بعنف لجنة الاتحاد والترقي التي تحكم البلاد، إذ رأى رضا أن تلك السياسات تهدد وحدة الدولة العثمانية المتعددة الأعراق[٢]. وقد أدان رضا على وجه خاص السياسات المعادية للعرب واللغة العربية والتي زرعت العداوة والبغضاء بين أكبر وأهم شعبين عثمانيين، أي العرب والأتراك[٣]. وكان على رضا أن يختار بين هدفين لحركته الإصلاحية السياسية في تلك المرحلة: الأول هو إقامة نظام سياسي إسلامي بإصلاح الحكومة العثمانية المركزية، والثاني هو حماية الدولة العثمانية من انهيار متوقع بإصلاح هيكل الدولة ذاته، وقد اختار رضا الهدف الثاني.

المبحث الثالث: نحو جامعة إسلامية: جامعة عثمانية إسلامية الأساس والوجهة:

لعل من أبرز مظاهر تأثير الأفغاني في آراء رشيد رضا السياسية واتساق جهودهما في سبيل الإصلاح السياسي، هو تبني رشيد رضا لفكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها الأفغاني. ومع ذلك فبينما كانت هذه الفكرة ذروة المشروع السياسي عند الأفغاني، فإنها مثّلت مرحلة وسطى في المشروع الإصلاحي السياسي عند رشيد رضا. وبينما كانت فكرة الجامعة الإسلامية عند الأفغاني أكثر شمولاً من حيث الهدف والمضمون، فإن فكرة رشيد رضا حول الجامعة الإسلامية كانت أكثر واقعية وقابلية للتطبيق بالنظر إلى ظروف العالم الإسلامي في عصره. ورغم صعوبة تحديد أول من أطلق هذه الدعوة، إلا أننا لا نشك أن الأفغاني كان أول مفكر وسياسي مسلم يطور مشروعاً

(١) المراكشي، محمد صالح، مرجع سابق، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) انظر: Assad Nimer Busool, op. cit., pp. 149-154.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٣-١٦٤.

متماسكاً لإنجاز هذه الفكرة و يدعو لها متحمساً سواء لدى الزعماء المسلمين أو الجماهير المسلمة، ولذلك فإن فكرة الجامعة الإسلامية عادة ما تنسب إليه.

وقد سعى الأفغاني بدعوته إلى الجامعة الإسلامية إلى معالجة ثلاثة انقسامات رئيسية بين المسلمين. فقد سعى أولاً إلى ردم الهوة التي تفصل بين المسلمين السنة وإخوانهم المسلمين الشيعة. حيث رأى الأفغاني أن الاختلاف بين التيار السني الرئيسي ونظيره الشيعي اختلافاً هامشياً، وأن هذا الانقسام لا يفيد أي من الطائفتين ولا يخدم إلا مصالح الحكام المستبدين الذين سعوا -تاريخياً- للتهويل من ذلك الانقسام لاستغلاله في تعزيز حكمهم الاستبدادي. كما انتقد الأفغاني المواقف العدائية التي يتخذها متطرفو كل من الطائفتين تجاه الطائفة الأخرى. وإذ أدان الأفغاني الاتجاه السائد بين المسلمين نحو التقليد الأعمى لأئمة المذاهب، فقد رفض أن يلزم نفسه بمذهب أو إمام بعينه، مؤكداً على أنه مسلم بلا مذهب وعالم له اجتهاده الخاص في الإسلام. ولعل ذلك الموقف من أسباب عدم يقيننا مما إذا كان الأفغاني في الأصل سنياً أم شيعياً. ولا شك أيضاً أن ذلك الموقف قد ساعد الأفغاني على التعامل بكفاءة مع كل من السنة والشيعة[1].

وسعى الأفغاني ثانياً بدعوته إلى الجامعة الإسلامية إلى ردم الهوة بين الجماعات القومية المسلمة المختلفة. فقد أدان الأفغاني الأيديولوجية القومية الصاعدة آنذاك، وذلك انطلاقاً من منظور إسلامي يؤكد على أن الإسلام هو الجنسية الوحيدة للمسلمين، وأن المسلمين لم يعرفوا في تاريخهم جنسية سوى دينهم، فكان العربي يخضع لسلطة التركي، والفارسي يذعن لسلطة العربي، والهندي يخضع لحكم الأفغاني، طالما التزم الحكام بالتعاليم الإسلامية. ومن هذا المنطلق دعا الأفغاني جميع المسلمين لتأسيس جامعة إسلامية الأساس والوجهة[2]. ومن جانب آخر هاجم الأفغاني السياسة العثمانية الرسمية التي تقضي بتتريك جميع الشعوب العثمانية غير التركية. بل ودعا

(١) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني...، مرجع سابق، ص٣٧-٤٤.

(٢) جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص٣٠-٣٩.

جميع المسلمين -ولاسيما العثمانيين منهم- إلى استخدام لغة واحدة هي اللغة العربية. وقد عزا الأفغاني هذه الفكرة إلى السلطانين العثمانيين محمد الفاتح وسليم الأول رغم فشلهما في تحقيقها. ويجب ملاحظة أن دافع الأفغاني الوحيد وراء تشجيع استخدام اللغة العربية هو علاقتها الفريدة بالإسلام[١].

وثالثاً فإن دعوة الأفغاني إلى الجامعة الإسلامية هدفت إلى ردم الهوة السياسية بين الدول الإسلامية المستقلة. ولكنه كان واقعياً بدرجة كافية للتحقق من الصعوبة البالغة لإخضاع جميع الدول الإسلامية لحكومة واحدة وحاكم واحد. ولذلك قدّم الأفغاني بديلين خلاّقين لتوحيد الدول الإسلامية المستقلة. فقد اقترح أولاً إقامة نوع من الاتحاد الفيدرالي أو الكومنولث تتمتع الدول المنضمة إليه بالاستقلال في إدارة شئونها الداخلية[٢]. كما اقترح إقامة جامعة إسلامية على أساس التزام جميع الدول الإسلامية المنضمة إليها بذات القيم والشريعة المستمدة من القرآن والسنة[٣]. ويشير هذا الاقتراح إلى أن وحدة المسلمين كانت أولى عند الأفغاني من وجود خلافة إسلامية قوية. وقد جذبت فكرة الدولة الإسلامية الفيدرالية كوسيلة لإقامة جامعة إسلامية عدداً من دعاة الإصلاح الإسلامي فيما بعد، ومن بينهم عبد الرحمن الكواكبي[٤]، والشيخ رشيد رضا.

أ- إصلاح بنية الدولة العثمانية:

رأى رضا أن الصدع المتزايد بين العثمانيين لا يرأبه إلا إقامة جامعة عثمانية حقيقية. فبينما خضعت للدولة العثمانية جماعات عرقية ودينية مختلفة لا يجمعها سوى الرابطة العثمانية، فإن هذه الرابطة لم تكن تعني في الواقع أكثر من الخضوع لحكم

(١) جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص١٣-١٦.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص١٦-١٩.

(٣) جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص٢٥-٢٩.

(٤) انظر على سبيل المثال كتاب الكواكبي "أم القرى" في: عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، تقديم وتحقيق محمد جمال الطحان، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥)، ص٢٧٤-٤١١.

سلاطين آل عثمان. أما رشيد رضا فقد رأى أن الدولة العثمانية يجب أن تصبح وطناً لجميع الشعوب المنضوية تحت لوائها بغض النظر عن أعراقها وأديانها، ومن ثم يصبح لدى رعاياها هوية وطنية عثمانية لا تتعلق بشخص حاكمها، وتتمتع جميع شعوبها بحقوق وواجبات متساوية. وهذا لا يمنع أن تظل الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية وأن يظل السلطان العثماني خليفةً لجميع المسلمين عثمانيين وغير عثمانيين[١]. كما لا يتعارض ذلك مع إقامة النظام السياسي العثماني على أساس المبادئ الإسلامية في الحكم[٢]. وبعبارة أخرى، فإن فكرة الجامعة العثمانية كانت تعني صبغ الهوية العثمانية بالصبغة الوطنية والمساواة بين جميع الشعوب العثمانية دون أن تصبح الدولة العثمانية دولة قومية تهتم فقط برعاياها أو علمانية لا تلتزم بالإسلام. ويبدو أن هذه الفكرة كانت حلاً وسطاً بين الأيديولوجية القومية التي ابتدعها الأوروبيون والعلاقة الإسلامية الفريدة بين الأمة وقيادتها ممثلة في مؤسسة الخلافة.

ولكن لماذا كانت فكرة رشيد رضا عن الجامعة الإسلامية محصورة بالدولة العثمانية، وذلك على خلاف أستاذه الأفغاني؟ لقد سعى رضا إلى جسر الفجوة بين المسلمين السنة والشيعة، وكذلك بين المدارس الفكرية والفقهية السنية المختلفة، وذلك بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وإعمال العقل لفهم الدين[٣]. إلا أن الهدف الرئيسي لفكرته عن الجامعة الإسلامية كان بالفعل هو إصلاح العلاقة العرب والأتراك في إطار الدولة العثمانية[٤]. وربما يعود ذلك إلى عدة أسباب. **فأولاً** كان رضا عثماني الوجهة سياسياً، إذ كان يرى الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، برغم انتقاده حكامها

---

(١) انظر: Assad Nimer Busool, op. cit., p 142.

(٢) السلمان، محمد عبد الله، مرجع سابق، ص ٤٩٣.

(٣) حول آراء رشيد رضا وجهوده في هذا المجال انظر: محمد رشيد رضا، الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية وتوحيد المذاهب (بيروت ودمشق: المكتب الإسلامي، د.ت.)؛ وانظر أيضاً: الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص٤٨-٦٦.

(٤) رضا، محمد رشيد، رحلة إلى القسطنطينية، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص ٥٧-٥٨؛ وانظر أيضاً: Assad Nimer Busool, op. cit., pp191-121.

لعدم التزامهم بالمبادئ الإسلامية في الحكم[١]. **وثانياً** لم ينس رضا أبداً هويته الأصلية، وهي أنه سوري عربي عثماني. فرغم أنه قضى معظم حياته في مصر التي كانت قد خرجت بالفعل من أيدي العثمانيين، إلا أن انخراطه في الحياة السياسية العثمانية والعربية والسورية فاق بكثير انخراطه في الحياة السياسية المصرية.

وثالثاً فإن رضا كان أشد تأثراً بأستاذه عبده من أستاذه الأفغاني فيما يتعلق بالموقف من الاستعمار. فرغم مقته للاستعمار فقد كان متردداً في مهاجمته أو التدخل في الشئون السياسية للبلاد الإسلامية المستعمَرة في تلك الفترة، بما فيها مصر، في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية واحدة من قليل من الدول الإسلامية التي حافظت على استقلالها[٢]. **ورابعاً** فقد كان رشيد رضا واقعياً بحيث تحقق من أن ظروف العالم الإسلامي في عصره كانت أسوأ من ظروفه حين دعا الأفغاني إلى إقامة جامعة إسلامية تضم جميع الدول الإسلامية المستقلة. وتطبيقاً للقاعدة الأصولية "ما لا يدرك كله لا يترك جله". سعى رضا أساساً إلى الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية. وفي الواقع فلا يوجد دليل على أن الجامعة العثمانية كانت آخر المطاف في مشروع رضا للوحدة الإسلامية. فربما لو أن هذه الجامعة كانت قد تحققت لجاهد رضا لإقامة جامعة إسلامية أكبر.

وحيث إن رضا كان قد فقد الأمل تماماً في إصلاح الحكومة المركزية العثمانية الفاسدة[٣]، فقد اتجه إلى الدعوة للعمل على إقامة جامعة عثمانية على أساس لامركزية الحكومة والإدارة العثمانيتين. وكان هدف رضا المُلحّ هو تمكين الشعوب العثمانية غير التركية من الاعتماد على ذواتها واحترام ثقافاتها والدفاع عن أراضيها ضد خطر

---

(١) السلمان، محمد عبد الله، مرجع سابق، ص ٤٩٥؛ محمد المراكشي، مرجع سابق، ص ١٨٧.

(٢) حول آراء رشيد رضا في الاستعمار الغربي انظر: Emad Eldin Shahin, *Through Muslim Eyes: M. Rashid Rida and the West* (Herndon, VA, USA: The International Institute of Islamic Thought, 1993) pp. 75-87.

(٣) انظر: Assad Nimer Busool, op. cit., p 160.

التدخل الأجنبي المتزايد. وربما ينظر البعض إلى اللامركزية على أنها دعوة لتمزيق الدولة العثمانية، إلا أن هذا غير صحيح في ضوء معطيات تلك الفترة. فاللامركزية كانت دعوة إلى توحيد الشعوب العثمانية ومنع تشطير الدولة نتيجة الأفكار والحركات القومية المختلفة التي كان يشتد عودها بين أبناء تلك الشعوب ولاسيما غير التركية منها التي عانت من سياسة التتريك فأصبحت ترى الدولة العثمانية تجسيداً للاحتلال التركي لبلادها[١].

دعا رشيد رضا إلى اللامركزية في مجلته "المنار"، كما شارك في تأسيس حزب اللامركزية الإدارية العثماني في القاهرة، والذي كانت تقوده نخبة من المهاجرين السوريين في مصر. وقد انتُخِب رضا رئيساً للجنة الحزب العليا. ورغم أن الحزب أطلق على دعوته "اللامركزية الإدارية"، فإنه كان يدعو حقيقةً إلى نوع من الفيدرالية الديمقراطية. فقد دعا الحزب إلى قصر سلطات الحكومة العثمانية المركزية على الشئون الخارجية وشئون الدفاع والمواصلات، وتخويل الحكومات المحلية في الولايات العثمانية كافة الصلاحيات الأخرى. كما أكد الحزب على أن الأمة هي مصدر السلطات، وبالتالي فإن الشعب يجب أن ينتخب ممثليه في الجمعية الوطنية المركزية والمجالس النيابية الإقليمية، وأن تلك المجالس المنتخبة يجب أن تُمَكَّن من مراقبة أعمال الحكومات المركزية والمحلية كلٌ بحسب نطاق اختصاصاته[٢].

ومرة أخرى فإن حزب اللامركزية الإدارية العثماني الذي ساهم في تأسيسه رضا، نجح ظاهرياً في تحقيق جانب من الإصلاح السياسي الذي فشل في تحقيقه تنظيم العروة الوثقى الذي أسسه الأفغاني. فنتيجة لامبالاة الحكومة العثمانية تجاه دعوات العرب العثمانيين إلى الإصلاح السياسي، شارك الحزب في تنظيم ورعاية المؤتمر العربي الأول

---

(١) Assad Nimer Busool, op. cit, p. 149

(٢) لمزيد من التفاصيل حول بنية الحزب وبرنامجه انظر: المرجع السابق، ص ١٥٥-١٦٣؛ الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ٢٣٤-٢٣٧.

الذي عُقِد في باريس عام ١٩١٣. وعرض المؤتمر بجلاء لمطالب العرب العثمانيين وخاصة اللامركزية الإدارية، كما أظهر المؤتمر قوة الحزب وحسن تنظيمه والدعم الذي يتمتع به بين العرب العثمانيين. ونجح الحزب في دفع الحكومة العثمانية للتفاوض مع ممثلين عنه وعن رئاسة المؤتمر، حيث وعدت الحكومة بالقيام بإصلاحات سياسية وإدارية واسعة النطاق، وأصدرت بذلك منشوراً باسم السلطان، كما عرضت مناصب رسمية في الحكومة المركزية على بعض من تفاوضت معهم. إلا أن ذلك النجاح لم يكن إلا سراباً، فقد ماطلت الحكومة وسَوَّفت، ولم تُنجِز شيئاً يذكر من وعودها، بل وتمادت في سياساتها القومية والعنصرية التركية[١].

ب- جامعة عربية في إطار الدولة العثمانية:

خَلُص رضا إلى أن سياسات حزب الاتحاد والترقي الحاكم ستقضي على الدولة العثمانية وستُعرِّض الولايات العربية لخطر التدخل الأجنبي. لذلك أسس رضا جمعية سرية إسلامية التوجه ضمت معظم أمراء الجزيرة العربية وأطلق عليها جمعية الجامعة العربية. وكان هدف رضا الرئيسي من هذه الجمعية هو حث الأمراء العرب على إقامة تحالف عسكري فيما بينهم للدفاع عن جزيرتهم العربية[٢]. ويثور هنا سؤالان: الأول هو إلى أي مدى كانت جمعية الجامعة العربية التي أنشأها رضا تشبه تنظيم العروة الوثقى الذي أنشأه الأفغاني؟ فكل منهما كان منظمة سرية معادية للاستعمار. ولكن بينما كان تنظيم العروة الوثقى يحارب الاستعمار البريطاني الموجود بالفعل في مصر والهند، فإن إنشاء جمعية الجامعة العربية كان خطوة استباقية تهدف إلى إقامة تحالف دفاعي يمنع القوى الأجنبية من استعمار الجزيرة العربية. وبينما ضم تنظيم العروة

(١) لمزيد من التفاصيل حول المؤتمر وقراراته وموقف الحكومة العثمانية منه انظر: الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ٢٤٤-٢٥١؛ وانظر: Assad Nimer Busool, op. Cit., p 165-174.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول جمعية الجامعة العربية انظر: الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص ٢٥١-٢٦١؛ وانظر: Assad Nimer Busool, op. cit., p 140-142.

الوثقى أُناساً من عامة المسلمين، كانت عضوية جمعية الجامعة العربية تقتصر في البداية على أمراء العرب.

أما التساؤل الثاني والأكثر أهمية فهو لماذا قَبِل رضا فكرة الجامعة العربية بينما رفض فكرة الجامعة الطورانية التركية؟ تكمن الإجابة على هذا التساؤل في الاختلافات الجوهرية بين فكرة رضا عن الجامعة العربية وسياسة الحكومة العثمانية المتعلقة بالجامعة الطورانية التركية. فبينما أدى انشغال الحكومة العثمانية بدعوة الجامعة الطورانية إلى تعريض الأقاليم غير التركية في الدولة العثمانية للاحتلال الأجنبي الفعلي أو الوشيك، فإن دعوة الجامعة العربية هدفت إلى حماية الأقاليم العربية العثمانية من خطر هذا الاحتلال. وبينما هدفت الجامعة الطورانية إلى جمع الأتراك العثمانيين وغير العثمانيين في رابطة واحدة، فإن رضا كان حريصاً على ألا ينضم إلى الجامعة العربية إلا عربٌ عثمانيون. وبينما كانت الجامعة الطورانية دعوة إلى تتريك الشعوب العثمانية غير التركية والعدوان على ثقافاتها، فإن الجامعة العربية كانت دعوة لبث الحمية في العرب للدفاع عن أنفسهم. وأخيراً بينما كانت الجامعة الطورانية قومية الأساس والوجهة، فإن الجامعة العربية كانت قومية الأساس إسلامية الوجهة. وبالجملة فإن فكرة الجامعة العربية كانت تصب في فكرة الجامعة العثمانية الأكبر. فقد كان رضا مخلصاً لهويته العثمانية، و لم يعمل قط على تمزيق الدولة التي كان يعدّها دولة الخلافة الإسلامية.

وقد أقنعت سياسات الحكومة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى رضا بأهمية الجامعة العربية. إذ مثّلت الحرب زخماً جديداً للقمع الحكومي في الولايات العربية، خاصة؛ لأنها خشيت من اندلاع ثورة عربية تتعاون مع قوات الحلفاء ضد الحكم العثماني. وكان من بين ضحايا ذلك القمع عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر العربي الأول وغيره من الزعماء العرب الذين أعدمهم الوالي العثماني في سوريا[1]. وكان رضا في ذلك الوقت معنياً بمصير الولايات العربية العثمانية بعد الحرب، ولاسيما ولاية

(١) رضا، محمد رشيد، الرحلة السورية الثانية: تمهيد، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص٢١٦-٢١٧.

الحجاز التي تضم مكة المكرمة والمدينة المنورة. فقد رأى رضا أن انتصار الحلفاء قد يؤدي إلى احتلالهم الولايات العربية باعتبارها جزءاً من الأملاك العثمانية. أما انتصار دول الوسط فقد يؤدي إما إلى خضوع تلك الولايات لألمانيا أو ممارسة حكومة الاتحاد والترقي مزيداً من القمع ضد العرب[١]. ومن الواضح أن جميع تلك الاحتمالات لم تكن في صالح العرب.

ولذلك رأى رضا في الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين والي مكة ضد الحكومة العثمانية عام ١٩١٦ نجاة للحجاز من الاحتلال والقمع؛ لأنها أخرجت الولاية من سلطة الحكومة العثمانية. فأيد رضا هذه الثورة، وحج في ذلك العام إلى مكة حيث التقى بالشريف حسين وألقى خطبة بمنى دعا فيها المسلمين ولاسيما العرب منهم إلى دعم الثورة وقائدها[٢]. وفي الواقع فإن تأييد رضا للثورة كأحد وسائل الإصلاح عند الضرورة يشبه قبول الأفغاني من قبل لبعض الوسائل العنيفة لإحداث تغيير جذري في النظام السياسي المصري. فحين بدت حركته قوية، مال الأفغاني للرأي القائل باغتيال الخديوي إسماعيل والإطاحة بنظامه الملكي وإقامة نظام جمهوري إسلامي لأول مرة في مصر[٣].

ورغم تأييده للثورة العربية، لم يبايع رشيد رضا الشريف حسين خليفة للمسلمين، كما لم يشجع غيره على ذلك، على الرغم من تحريض البعض له للقيام بهذه الخطوة ليتبعه المسلمون فيها. فالثورة العربية كانت بالنسبة لرضا رداً مشروعاً على قمع حكومة الاتحاد والترقي للعرب، ولم تكن أبداً تحدياً لشرعية الخلافة العثمانية. ولذلك كان يرى أن هدف الثورة يجب أن يظل هو حماية الحجاز من التدخل الأجنبي والقمع العثماني[٤].

---

(١) السلمان، محمد عبد الله، مرجع سابق، ص ٥٠٠.

(٢) انظر النص الكامل لهذه الخطبة وموقف رضا من الثورة العربية في: سمير أبو حمدان، الشيخ محمد رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل، (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٢)، ص١٤٧-١٦١.

(٣) عمارة، محمد، جمال الدين الأفغاني...، مرجع سابق، ص ٢٤٠-٢٤٢.

(٤) المراكشي، محمد صالح، مرجع سابق، ص ١٥٧.

ج- نحو خلافة إسلامية راشدة:

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، انشغل رشيد رضا عن دعوته لإقامة جامعة إسلامية بجهاده من أجل إقامة دولة إسلامية نموذجية في وطنه سوريا التي حررها الجيش العربي من استبداد حكومة الاتحاد والترقي العثمانية. وقد تبوأ رضا في سوريا العديد من المناصب التي مكنته من تحقيق بعض أهدافه الإصلاحية. فقد انتُخِب رضا رئيساً للمؤتمر السوري العام، ونجح مع زملائه الإصلاحيين في إقامة نظام ملكي دستوري يقترب من تصوره لما ينبغي أن يكون عليه النظام السياسي الإسلامي الحديث. إلا أن جهوده الإصلاحية في سوريا سرعان ما انهارت بسقوط الحكومة الدستورية على يد الاحتلال الفرنسي، وهو ما دفعً رضا للمشاركة مع المجاهدين ضد الاستعمار وذلك بالكلمة في مجلة المنار وبالفعل حين سافر إلى أوروبا لرفع قضية وطنه لعصبة الأمم[1].

ولكن في أعقاب قرار الجمعية الوطنية التركية بفصل الخلافة الإسلامية عن الحكومة التركية وسحب جميع السلطات والصلاحيات السياسية من الخليفة العثماني، عاد رضا لمناقشة قضية الخلافة والجامعة الإسلامية، فكتب عام ١٩٢٢ رسالته عن الخلافة الإسلامية. ورغم أنه أدان القرار التركي واعتبره باطلاً لأن الخليفة يجب أن يتمتع بالسلطات والصلاحيات التي تمكنه من أداء مهام منصبه، فإنه أهدى هذه الرسالة إلى الشعب التركي الذي عدّه أقدر الشعوب الإسلامية على إحياء الخلافة والحضارة الإسلاميتين.

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول جهود رضا للإصلاح السياسي في سوريا في تلك الفترة انظر: محمد رشيد رضا، الرحلة السورية الثانية، في:يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص٢١١-٣١٠؛ الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص٢٧٩-٣٠٠؛ ولمزيد من التفاصيل عن دور رضا في عرض القضية السورية على عصبة الأمم انظر: محمد رشيد رضا، الرحلة الأوروبية، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص ٣١١-٣٨٤.

ودعا رضا في الجزء الأول النظري من رسالة الخلافة إلى إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية على أساس إسلامي أصيل واجتهاد عصري لفهم القرآن والسنة[1]. فالخلافة المنشودة يجب أن تكون راشدة وأن تقوم على الشورى والدستور، ويجب ألا تشبه الخلافة العثمانية التي وصفها رضا بأنها كانت "خلافة ضرورة" لم تكتسب مشروعيتها رغم مخالفتها للمبادئ الأساسية للخلافة إلا لضرورة وجود خلافة إسلامية. ودعا رضا علماء المسلمين وقادتهم السياسيين إلى ترشيح عدد من الأفراد لمنصب الخلافة، ثم يلتحق هؤلاء بمدرسة تُنشأ خصيصاً لتعليم مبادئ الخلافة والتدريب على القيام بمهامها. وبعد اجتيازهم تلك المرحلة يُرشَّح هؤلاء الأفراد واحداً من بينهم لمنصب الخلافة، فإذا ما صادق علماء الأمة وقادتها على ذلك الترشيح يُعرَض على عامة المسلمين، فإذا ما وافقوا أصبح المرشح خليفة للمسلمين. وبذلك يصبح الخليفة مستوفياً لشروط الخلافة ومؤهلاً للقيام بأعبائها ومقبولاً بين الناس. وحيث أن رضا يرى أن الخلافة مؤسسة وليست منصباً، اقترح إنشاء عدة أجهزة سياسية تعاون الخليفة على الحكم على النهج الإسلامي الصحيح. وتشبه بنية مؤسسة الخلافة عند رضا إلى حد كبير، بنية النظام الجمهوري الديمقراطي الحديث[2].

أما في الجزء الثاني التطبيقي من الكتاب، فقد اقترح رضا حلولاً لتذليل العقبتين اللتين رأى أنهما تحولان دون تطبيق نموذجه للخلافة الراشدة، وهما العداوة والبغضاء بين العرب والأتراك من جانب، وعمليات التغريب المتزايدة في العالم الإسلامي من جانب آخر. وحيث لم يكن لدى رضا أمل في أن تقوم الحكومة التركية الوطنية التي يقودها كمال أتاتورك بدعم اقتراحه عن الخلافة الراشدة، كما لم يكن لديه أمل في أن يقوم الأمراء العرب المتعادون أو الزعماء العرب الخاضعون للغرب بتطبيق ذلك الاقتراح، دعا رضا إلى مخرج مبتكر لإقامة خلافة إسلامية راشدة. إذ اقترح إقامة تلك الخلافة في

(١) رضا، محمد رشيد، الخلافة، مرجع سابق، ص٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦-٨٩.

منطقة وسطى بين بلاد العرب وبلاد الترك، وحدد لها مدينة الموصل في شمال العراق، ثم تنضم البلاد الإسلامية إلى تلك الخلافة تباعاً إذا اقتنع قادتها بأهمية الخلافة الإسلامية وصلاح نظامها السياسي[1]. ولا شك أن هذا الاقتراح كان مثالياً بل خيالياً لم تسمح بتحقيقه ظروف العالم الإسلامي في ذلك الوقت أو في وقت لاحق.

وكان رضا متفائلاً فيما يتعلق بموقف الغرب من نموذج الخلافة الذي اقترحه، فظن أن الغرب لن يبال بها أو يعمل على عرقلة إقامتها. إذ دعا رضا الغرب إلى عدم الخوف من إقامة خلافة إسلامية راشدة؛ لأن تلك الخلافة لن تتحول إلى جامعة إسلامية تحشد المسلمين في كل أرجاء العالم ضد الغرب[2]. إلا أن ما كان يخشاه على تلك الخلافة هو سيطرة الأحزاب السياسية المتغربة في العالم الإسلامي، وخاصة القوميين في تركيا[3]. وقد صدق حدس رضا، إذ كانت تلك الأحزاب أشد المعارضين لإعادة تأسيس الخلافة الإسلامية بأي شكل كان، حتى أن الجمعية الوطنية التركية قررت عام ١٩٢٤ إلغاء الخلافة الإسلامية تماماً.

(١) رضا، محمد رشيد، الخلافة، ص٧٧-٨٦.

(٢) المرجع سابق، ص١٢٤-١٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص١١٧-١٢٣.

obeikandl.com

خاتمـــة:

لم يكن الشيخ رشيد رضا تلميذاً للإمام محمد عبده فحسب، بل كان مصلحاً لـــه إسهاماته الفكرية والحركية المستقلة التي تميزه عن أساتذته ومعاصريه من دعاة الإصلاح الإسلامي. ولعل آراء رشيد رضا وجهوده في مجال الإصلاح الـــسياسي لا تـــشير إلى اختلافه مع أستاذه محمد عبده فقط، بل وإلى اتفاقه مع أستاذه الأفغاني في قضية تباينت آراء الأستاذين فيها تبايناً كبيراً. وكانت مجلة "العروة الوثقى" هي أهم المصادر الـــتي تأثر رشيد رضا من خلالها بفكر الأفغاني، كما كانت نموذجاً لمجلة "المنار" التي أصدرها رضا في مصر والتي لاقت رواجاً كبيراً في العالم الإسلامي وأسست مدرسة فكرية لا تقل في أهميتها عن مدرسة "العروة الوثقى".

وقد تطور المشروع الإصلاحي السياسي للشيخ رشيد رضا بتطور فكـــره وتغـــير الأحداث من حوله في العالم الإسلامي عامة وفي الدولة العثمانية خاصـــة. فقـــد رأى رضا في البداية أولوية إقامة نظام سياسي إسلامي دستوري في الدولة العثمانية، فـــدعا إلى ذلك في "المنار"، وأنشأ لتحقيق ذلك الهدف جمعية الشورى العثمانيـــة في مـــصر، وبعد نجاح انقلاب عام ١٩٠٨ أيد حكومة لجنة الاتحاد والترقي وتفاوض مع زعمائها لإدخال إصلاحات دستورية وجسر الفجوة التي أحدثتها سياسة التتريـــك في عهـــد السلطان عبد الحميد الثاني. ولما تأكد رشيد رضا من إصرار الحكومة العثمانية علـــى مبادئها القومية التركية وتوجهها العلماني التغريبي، وفقد الأمل في إصلاحها، دعا رضا إلى إقامة جامعة عثمانية مستوحياً فكرة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها الأفغاني مـــن قبل. ولتحقيق ذلك الغرض اشترك رضا في تأسيس حزب اللامركزية الإدارية العثماني الذي دعا إلى إقامة نظام فيدرالي ديمقراطي في الدولة العثمانية. كما أنشأ رضا جمعيـــة الجامعة العربية بهدف جمع الأمراء العرب على الدفاع عن جزيرتهم العربيـــة في وجـــه القمع العثماني المتزايد ضد العرب والتدخل الأجنبي الذي بات وشيكاً مـــع انـــدلاع الحرب العالمية الأولى. و لم ييأس الشيخ رشيد رضا بعد قرار الحكومة الكمالية في تركيا

بفصل الخلافة عن السلطنة ثم قرارها بإلغاء الخلافة العثمانية تماماً، و لم يكتف بنقد القرارين أو البكاء على أطلال الخلافة كما فعل كثير من مشايخ عصره، بل وضع رسالته الرائدة في "الخلافة" داعياً إلى إقامة خلافة إسلامية راشدة على نهج النبوة ومقترحاً حلولاً مبتكرة لتذليل الصعاب التي واجهت إقامة تلك الخلافة.

وكان مصير جهود رشيد من أجل الإصلاح السياسي شبيهاً إلى حد كبير بمصير جهود الأفغاني من أجل تحقيق ذات الغاية. فرغم عدم النجاح الظاهري في تحقيق الأهداف الإصلاحية المعلنة، حققت التجربتان نجاحاً كبيراً في جانبين كان لهما أكبر الأثر في حركات الإصلاح السياسي في العالم الإسلامي. فمن منظور الشيخ رشيد رضا نجح الأفغاني أولاً في إيقاظ قطاع كبير من الأمة الإسلامية فأصبح واعياً بحقوقه ومسئولياته من جانب وبفساد النظم السياسية القائمة آنذاك من جانب آخر. فنجاح الأفغاني بين الجماهير المسلمة كان أكبر من نجاحه بين حكام المسلمين. فبعد أربعين عاماً من طرد الأفغاني من مصر اندلعت فيها ثورة شعبية كبرى ضد الاستعمار البريطاني قادها أحد تلامذة الأفغاني هو سعد زغلول. ورأى الشيخ رشيد رضا بحق أن هذه الثورة كانت من ثمار الأفكار التي بثها الأفغاني في مصر[1]. وثانياً طرح الأفغاني بدائل لتحقيق الإصلاح السياسي الإسلامي سواء في مجال إقامة نظم سياسية ترتكز على الدستور والشورى، أو في مجال تحرير البلاد الإسلامية من الاستعمار وتوحيدها تحت راية الجامعة الإسلامية. ومن ثم فقد استفاد من تجربته الرائدة من جاء بعده من المصلحين المسلمين. بل إن المشروع الإصلاحي السياسي الذي دعا إليه الشيخ رشيد رضا وجاهد في سبيل تحقيقه كان من ثمرات دعوة الأفغاني للإصلاح السياسي كما بيَّنا في هذه الورقة.

وبالمثل فقد نجحت دعوة الشيخ رشيد رضا للإصلاح السياسي بين الجماهير المسلمة أيضاً. إذ أثّرت أفكاره وجهوده الإصلاحية في فكر وحركة الشيخ حسن البنا

(١) رضا، محمد رشيد، الرحلة السورية الثانية: ٣، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص٢٣١.

مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وأول مرشد عام لها، بل أثّرت أيضاً في البرنامج السياسي للجماعة. وليس أدل على هذا التأثير من أن الشيخ البنا كان حريصاً على نشر أفكار الشيخ رضا بعد رحيله، فواصل حتى حين إصدار مجلة المنار بعد وفاة مؤسسها ومحررها[1]. كما أن الشيخ رشيد رضا ذكر في افتتاحية العدد الأول من المجلد الخامس والثلاثين، وهو آخر عدد حرره قبل وفاته، أن "المنار" سيصبح منذ ذلك العام (١٩٣٥) لسان جماعة تدعو إلى الإسلام وجمع كلمة المسلمين وهذه الجماعة أُنشئت لتخلف جماعة الدعوة والإرشاد[2]، وهي جماعة كان قد أسسها الشيخ رشيد رضا بقصد إيجاد تعليم مدرسي إسلامي ثم انحلت بسبب تعثر تمويلها خلال الحرب العالمية الأولى. وربما تكون هذه إشارة إلى جماعة الإخوان المسلمين، خاصة بالنظر إلى تشابه اسم جماعة الدعوة والإرشاد مع اسم قيادة الجماعة وهو مكتب الدعوة والإرشاد. وإذا كنا قد ألقينا الضوء علي بعض جوانب استمرارية دعوة السيد جمال الدين الأفغاني للإصلاح السياسي من خلال فكر الشيخ رشيد رضا وحركته من أجل ذات الغاية، فإن المكتبة العربية تحتاج إلى دراسة مستقلة للبحث في استمرارية دعوة الشيخ رشيد رضا للإصلاح السياسي من خلال فكر الأستاذ حسن البنا وحركة جماعة الإخوان المسلمين.

(١) لمزيد من التفاصيل حول علاقة الشيخ البنا بالشيخ رضا انظر: الشوابكة، أحمد، مرجع سابق، ص١٦٠-١٦٤؛ وانظر أيضاً: Emad Eldin Shahin, op. Cit., p 13. ولمزيد من التفاصيل حول رؤية الشيخ البنا لتأثير الشيخ رضا في جماعة الإخوان المسلمين انظر: حسن البنا، في الميدان من جديد، المنار، المجلد ٣٥، العدد ٥، يوليو ١٩٣٩، ص٣-٧.

(٢) رضا، محمد رشيد، فاتحة المجلد الخامس والثلاثين، المنار، المجلد ٣٥، العدد ١، يوليو ١٩٣٥، ص١١.